This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقررات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

سيرة بني هلال

أعمال الندوة العالمية الأولى
حول السيرة الهلالية

الحمامات - تونس 26-29 جوان 1980

تقديم عبد الرحمن أيوب

الدار التونسية للنشر - المعهد القومي للآثار والفنون

منازل الهلاليين
في الشمال الافريقي

محمّد المرزوقي

من المعروف أن قبائل هلال وسليم العربية لم تدخل إفريقيا الشماليّة الا في منتصف القرن الخامس للهجرة حوالي منتصف القرن الحادي عشر مسيحي، وقد سبقتها الى هذه البلاد قبائل عربية أخرى متعددة استمر ورودها من الشرق منذ القرن الاول للهجرة السابع مسيحي وأثناء القرون التالية منها الجماعات القادمة مع جيوش الفتح ومنها التي وردت اثر استقرار الحكم العربي في البلاد.

القبائل العربية قبل الهلاليين

وهذه القبائل السابقة يقول عنها أستاذنا المرحوم حسن حسني عبد الوهاب إنها من بقايا الجيوش العربية الوافدة على إفريقيا في زمان الفتوح أواخر القرن الاول والقرن الثاني للهجرة في عهد بني أمية وأوائل دولة بني العباس، ولا يقل عدد القادمين عن مائتي ألف مقاتل، وقد استوطنوا العواصم والمدائن والقرى وهي كثيرة في إفريقية، وأغلبهم ينتسب إلى القحطانيين عرب الجزيرة (لخم ــ وتجيب ــ والازد ــ وجذام) ــ عدا من كان من (حضر موت مثل بني خلدون ــ ومهرة وغيرهم). وقد نزح منهم قسم الى الاندلس وبقي جزء وافر في إفريقية التونسية ولم تزل أعقابهم في عواصم البلاد الى يوم النّاس هذا، لا سيما بمدينة القيروان وهم محافظون لحد الآن على أنسابهم محافظة عجيبة وقد تأثرت اللهجة التونسية بكثير من كلامهم وأوضاعهم الخاصة بهم.

والمعروف أن العائلات العربية في القيروان ينتسب أكثرها الى الأوس والخزرج وهذيل.

أما من كان من العدنانيين — عرب شمال الجزيرة العربية — فقد بقي من أعقابهم في البلاد التونسية التميميون رهط بني الاغلب القادمون أثناء القرن الثاني. والفهريون من قريش، رهط عقبة بن نافع الفهري مؤسس القيروان.

وهذه الطبقات الاولى من عرب الفتح هي التي بدأت تعريب البلاد ووطدت أركان الاسلام في المغرب على العموم وقد امتزجت تمام الامتزاج بالافارقة الاصليين، وقليل من المؤرخين من بحث عن بقايا الجند العربي الأول.

هلال وسليم : أما قبائل هلال وسليم فقد كانت منازلها في الجزيرة العربية في العهد الجاهلي تمتد من الطائف إلى ما وراء المدينة المنورة فهلال منتشرون ما بين الطائف وضواحي مكة ومن منازلهم شمالا تمتد قبائل بني عمهم سليم إلى مشارف المدينة غربي سفوح جبال نجد .

وتفرقت جماعات منهم في العهد الاسلامي الأول في جميع الجهات وخاصة إفريقيا فنحن نعرف ان بني هلال لما قصدوا الشمال الافريقي من الصعيد كانت قبائل منهم ومن سليم في مناطق برقة.

وقد شارك في زحفهم على البلاد التونسية عديد من قبائلهم فمن هلال مثلا : قبائل دريد — وزغبة — وعدي — ومعقل — ورياح — والأثبج — وقرة إلخ ومن سليم قبائل عديدة ذات فروع كثيرة.

وكلا القبيلتين هلال وسليم ترجعان الى أصلين كبيرين هما هوازن بن منصور وسليم بن منصور.

وقبل أن يزحفوا على البلاد التونسية اتصل شيوخ منهم بالامير : المعز بن باديس الصنهاجي في مقدمتهم مؤنس بن يحيى الرياحي الذي احتل مكانة مرموقة في البلاط، وقد حكى المؤرخون سبب النفرة التي وقعت بينه وبين المعز فقالوا إن المعز طلب من مؤنس أن يستجلب بني عمه من هلال ليلحقهم بجيشه فنصحه مؤنس أن لا يفعل لأن بني عمه لا يذعنون لأيّ قائد ولا تردهم قوة عن النهب

والافساد فاتهمه المعز بأنه أناني يريد الاستئثار وحده بالجاه والقرب من السلطان فغضب مؤنس وذهب لاستجلاب بني عمه وبمجرد وصولهم عاثوا في الارض فسادا فطلب منه المعز أن يكفهم عن ذلك فأجابه : هيهات ! لقد نصحتك فلم تنتصح وهكذا زحفوا على المعز واستعانوا ببني عمهم سليم فامتلكوا البلاد واقتسموها بينهم ولكنّهم لم يستقروا في مكان معين بل كانوا بدوا رحلا ينتقلون من مكان الى آخر مغتصبين املاك النّاس وانكمش أمراء المدن واحتفظ كل بمدينته مستقلا عن الحكومة المركزية الشرعية الموجودة في المهدية واستخدم أولئك الامراء وفي مقدمتهم أمير المهدية تميم بن المعز جماعات من قبائل هلال في حروبهم مقابل مبالغ مالية وهدايا وتنفيلهم بالغنائم .

طرد بعض القبائل من تونس : وفي أيام تميم الصنهاجي أمير المهدية (454 هـ 501 هـ) النصف الثاني من القرن الحادي عشر المسيحي انتشر فساد بني هلال في إفريقية التونسية بامتهانهم للغزو والسلب والنهب سواء بين بعضهم بعضا أو بينهم وبين الأمراء القائمين على بعض الجهات،واستخدمهم الامراء أيضا في حروبهم مقابل مبالغ وغنائم تسلم لشيوخهم فشرع تميم في التخلص من بعض العصاة منهم فحرض بعضهم على بعض وساعد قبائل ضد أخرى حتى تمكن من طرد القبائل العاصية الى المناطق الجزائرية. ففي عهده أطرد عديا بواسطة رياح ثم شرد الاثبج مستعينا بقبائل أخرى وأخيرا ألحق بهما زغبة.

ولم تستقر الحالة اذ بقي يعاني الويلات سواء من القبائل الباقية منهم أو من القبائل المطرودة التي كانت تغير على أطراف ملكه وأحيانا بمساعدة من أمراء بجاية كواقعة سنة 529 هـ.

واستمرت القلاقل في أيام أبناء تميم وأحفاده كما استمر تنقل تلك القبائل من مكان الى آخر لا تعرف استقرارا ولا تركن للراحة والسكون حتى جاء عبد المؤمن الموحدي سنة (555 هـ / 1160 م) واستولى على تونس وأدرك ما لوجود الاعراب من خطورة على استتباب الامن واستقرار الملك فاصطحب عددا من قبائل الأعراب فوزعها بين سهول المغرب وشبه جزيرة الأندلس.

ومنذ ذلك العهد ادركت حالة القبائل التونسية بعض الاستقرار وخلصت

الاراضي التونسية لبني سليم ولم يبق معروفا في تونس من بني هلال الا عدد ضئيل من قبيلتي دريد ورياح وبقية القبائل كلها من فرع سليم بن منصور وهم قبائل عديدة متفرقة في كامل تراب الجمهورية التونسية وقد كان أغلبها — الى عهد غير بعيد — يعيش عيشة قبلية ثم استقر بعضها في أماكن وقرى معينة يزرع الارض ويربي الماشية بينما كان البعض الآخر يعيش متنقلا بين القرية في فصلي الصيف والخريف وبين البادية حيث الكلأ والماء في فصلي الشتاء والربيع، وهذه القبائل انتشرت في جهات الجنوب التونسي والجنوب الغربي على أبواب الصحراء الكبرى.

ولا يوجد الآن في تونس قبائل بدوية رحالة بالمعنى الصحيح أي تنتقل من مكان الى آخر دون استقرار بل استقرت كلها في القرى، وتم هذا الاستقرار منذ قرن على الاقل شيئا فشيئا بعمد المصالح المختصة الى بناء أسواق اسبوعية نبتت حولها القرى وقسمت بين السكان أراضي فلاحية زودتها بماء الآبار الارتوازية بحيث لم يبق قبل عهد الاستقلال من ساكني الخيام والاخصاص إلاّ النزر القليل وغالبه في الجنوب الاقصى (من ولايتي قابس ومدنين) وفي الجنوب الغربي من (ولايتي قفصة والجريد) حتى جاء الاستقلال فقضى على مظاهر البداوة وبنى القرى العصرية وزودها بالماء والنور والطرقات المعبدة وغيرها من لوازم التحضر والاستقرار.

وهذه الآن منازل القبائل العربية من هلال وسليم في الجمهورية التونسية — والملاحظ أن النّاس لا يفرقون بين فرعي هلال وسليم فكلهم يطلقون عليهم (هلالية)، وقد حاولت أن أجمع جميع فروع هذه القبائل مع ذكر منازل استقرارها في الجدول التالي :

اسم القبيلة	فروعها	جهة السكنى
رياح (هلال)	الصميدية	معتمدية مجاز الباب من ولاية باجة
	الدعاجة	
	أولاد الأمير	
	أولاد الحاج	
	الخرايصية	
	العبادلية	

	الحمايدية	
	أولاد سيدي عبد النّور	
	المساعيد	
دريد (هلال)	أولاد جوين	معتمدية المجاز من ولاية باجة
	أولاد عرفة	
	أولاد مناع	
	بنو رزق	
دريد (هلال)	أولاد خليفة	بولاية الكاف
	أولاد حربي	
	أولاد خالد	
	أولاد عبّاس	
	أولاد فتوح	
	أولاد قاسم	
	أولاد ميمون	
	أولاد موسى	
أولاد يعقوب (هلال)	بنو وائل	ولاية الكاف
	أولاد المهدى	
	الشبارية	
الهمامة (سليم)	أولاد بالهادي	
	أولاد محمد	
	البدور	
	الردايدية	ولاية قفصة
	أولاد عبد الكريم	
	أولاد مبارك	
	أولاد سيدي علي بن عون	
	أولاد الحاج	
	الخدمة	

	الظواهر	
	الدوالي	
	أولاد مبروك	
	أولاد سيدي بوزيد	
	الحرشان	
	أولاد وهيبة	
	أولاد معمر	
	أولاد عليم	
	أولاد بوعلاق	
	أولاد أحمد	
	أولاد يوسف	
	أولاد بيّة	
	الزعافرية	
	العكارمة	
	أولاد سيدي خليفة	
	أولاد سيدي تليل	ولاية قفصة
	المليكات	
نفات (سليم)	السماعلة	معتمدية الصخيرة
	عوين	
	العطيات	ولاية صفاقس
	أولاد حامد	
	الكرايمة	
أولاد يعقوب (سليم)	أولاد سباع ــ المهاملة	معتمدية قبلي
	أولاد بوبكر ــ الغياليف	ولاية قابس
	أولاد ميرة ــ المقارحة	
	أولاد عزيزة ــ المكارشة	

المرازيق (سليم)	أولاد عبد النّور	معتمدية دوز
	الجلايلة	ولاية قابس
	أولاد عون	
	أولاد منصور	
المرازيق (سليم)	أولاد يحيى	معتمدية دوز ولاية قابس
	العبيدات	
	العبادلة	
	أولاد عثمان	
	أولاد عبد الله	
	أولاد نصر	
	أولاد عمر	
الصابرية (سليم)	الرحامنة	دوز
	شبيب	
قعود (سليم)	الجرارة	ولاية
	أولاد علي	
	أولاد نوبصر	
غريب (سليم)	أولاد موسى	قابس
	أولاد نويجي	
	أولاد بواريح	
عرب تطاوين (سليم)	أولاد دباب	معتمدية تطاوين
	أولاد شهيدة	ولاية مدنين
	أولاد سليم	
	الودرانة	
	الدغاغرة	
التوازين (سليم)	فروع قعدة	معتمدية بنقردان
		ولاية مدنين

المثاليث (سليم)	أولاد نجم أولاد سليم أولاد مراح أولاد بوسمير أولاد يوسف أولاد المبروك أولاد الحاج المساترية المراعية الخشارمة	معتمدية ترباقة ومعتمدية جبنيانة من ولاية صفاقس

وبعض من عرب المثاليث منتشرون في معتمديات المهدية والمنستير وجمال (من ولاية سوسة) وهم : أولاد زيد، أولاد نصر، الحكايمة — الرشارشة — البرادعة، السّعد.

بنو يزيد (سليم)	الشياب السمايحة الحوازم التراجمة الشعل الخرجة الاصابعة الشلاخشة الزمازمة الجماين أولاد خليفة أولاد ضو الحرشان أولاد بن خود	معتمدية الحامة ولاية قابس

الحمارنة (سليم)	(من بني يزيد أيضا) أولاد عبد اللطيف أولاد بوعبيد الجلايلة العزايزة الموامنة الكواكبية العلاية أولاد حديدان أولاد محمد العصايدة الحمايدة العوامر	معتمدية مارث ولاية قابس

هذه خلاصة تسمية القبائل المستوطنة بالتراب التونسي والتي تمت بأسبابها الى قبائل هلال وسليم الزاحفة على المغرب الادنى في منتصف القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)

أما بالنّسبة لمنازل الهلاليين في الجزائر والمغرب الأقصى فنحن نعرف أن قبيلتي معقل والاثبج من (هلال) قد نزحتا الى ضواحي الزاب فاستقرتا هناك وانتشرتا انتشارا واسعا وتفرعتا الى بطون وافخاذ كثيرة. وتسربت فروع منها الى سهول متيجة — وسور الغزلان — وملیانة — وسهول شلف — وجبال جرجرة — والصحراء — ووهران — وتلمسان — ومعسكر — ومستغانم — والأصنام — وسعيدة — وتيارت — وعنّابة — ووادي الزناتي — وتبسة — وجيجل — وبرج بوعريريج — والحضنة — ومنطقة بسكرة — وانتشرت على طول سهول جبال الاوراس.

أما في المغرب الأقصى فقد انتشرت قبائل هلال في السهول الممتدة بين تلمسان وفاس وأغلبها من قبيلة زغبة وفي السوس الأقصى ونواحي الصحراء وتوجد منها مجموعات تسربت الى صحارى موريطانيا.

خاتمة : وفي خاتمة هذا الحديث أريد أن أبدي رأيا لا يزال يصاحب فكري منذ سنوات عديدة هذا الرأي يخص أسباب كلف العامة بأسطورة أو أساطير بني هلال.

يظهر أن الاسطورة لم تتكون في الشمال الافريقي مهد المعارك التي ظهرت فيها بطولات الهلاليين بل الاوضح أنها تكونت احداثها الاولى في مصر وعند عرب الصعيد خاصة والسبب في ذلك هو الانتصارات التي حققتها الهلاليون على الدولة الصنهاجية العتيدة خاصة منها معركة حيدران التي تغلب فيها ثلاثة آلاف فارس من الهلاليين على جيش قوامه ثلاثون ألفا من الجند الصنهاجي وهي المعركة التي قال فيها علي ابن رزق من بني هلال :

وان ابن باديس لاعظم مالك ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثون ألفـا منهم غلـبتهم ثلاثـة آلاف وذاك محال

وطارت أخبار هاته المعارك الى مصر فشاعت وذاعت أخبارها وأضفى عليها المخبرون نصيبا من المبالغات والخيال وأتكهن أن الفاطميين قد ساعدوا على نشرها وذيوعها بين العامة انتقاما من ابن باديس المتمرد ودفعا لبقايا هلال وسليم بالصعيد الى الالتحاق ببني عمهم السابقين طمعا في الغنائم والخيرات .

وهكذا تحدث القصاصون بأخبار بني هلال في مجالس السمر حتى تلقفها الوراقون لما رأوا كلف النّاس بها فكتبوها ونشروها بين النّاس مضيفين اليها كثيرا من الخيال ونصيبا من الوهم وجاعلين من فرسان هلال أشخاصا غير طبيعيين اذ باستطاعتهم أن يقارعوا جبابرة الملوك وجيوشهم الجرارة وأن يتغلبوا حتى على الجن والسحرة ويتحدث اليهم حتى الحيوان الابكم بلسان فصيح كرامة لبطولاتهم.

ومما أتذكره في هذا الخصوص حديث الذئب الى ذياب في رواية منطقة مدنين وخلاصتها :

ان ذياب بن غانم فارس زغبة كان يحرس الابل في الجنوب (التونسي) فعطش عطشا شديدا ولم يهتد الى مناهل الماء فعثر على أثر ذئب تناثر حوله التراب المبلل فأدرك انه خارج من مكان فيه ماء فتبع الاثر للخلف فأوصله الى مناهل واحة

رمادة وهي عيون متعددة منها عين (المنزهة) وعين (أم السعود) فشرب ذياب وأخذ زاده من الماء وفي طريقه اعترضه الذئب صاحب الأثر فرماه بسهم فنطق الذئب قائلا :

وردتك ستّيـن منهـل والمنزهـة وأم السعـود
ومـا كافيتنـي يا ذيـاب إلا بدقـة عود

والمفهوم أن واضع الاسطورة أراد أن يوضح لؤم الانسان وعدم اعترافه بالجميل على لسان الذئب ولكن العامة تقصها على أن الذئب قد نطق فعلا وكلم ذياب الذي يعتبرونه رجلا خارقا للعادة في شجاعته وأعماله الحربية يمكن أن يحدثه الحيوان والجماد والجن والإنس.

ولا يفوتني أخيرا أن أورد بعض القطع الشعرية المنسوبة الى الجازية وذياب وبوزيد والتي لا أشك أنها من نظم القصاصين.

فمما ينسب للجازية:

الحوت ما يسكـن البر والـطير تعـرف أوكارهـا
والـريم ما يقـرب البحـر كل ناس تنـزل ديارهـا

ومما ينسب اليها مما خاطبت به زوجها شكر بن هاشم حين انتقلت به من الحجاز الى الشام وهو غافل :

مالك يا شكـر بن هاشم راسك من فوق الوسادة مال
تبغـي ترجـع لبـلادك ياما صحاري دونها وجبـال
رحلت بيك ستة وستين رحلة منهم ستـة مشطـات طوال
وأنت مثل الحمـار مغفـل يزيـد علـيك بوذنين طوال

ومما ينسب اليها:

العبـد ما يحمي حريم سيده مادام من حريتـه مسلـوب
الراجل اذا ما بنى خيمته بيده يقعـد ستـار حمايتـه مخروب

ومما ينسب اليها:

لا خير في الطفـل اذا نشا وكان رقـاد كثير همايده

اذا ما جاب الشرق والغـــرب وقطـــع بين الثنايـــا مزاوده
أمـا يموت يرتـاح من العنـــاء والا يروح كالصقر مالي مخالبه
ربـــوا أولادكم للشدة والرخـــا يلاقـوا في حيـاتهم كل فائـده

ومما ينسب اليها:

ربي ولـدك للشدايـد بكـــره ما تقول عوده رقيق ما يواتيـه
اذا تمرس وانكبس في صغره سيب عنانه ما تخاف عليه

ومما ينسب الى ذياب بن غانم اثر معركة مات فيها بعض فرسان هلال:

ياويح قلبي من يطفي نارى على فرسان أصايل صناديـد
فارس العرب ولد الخفاجي عامر وشبل الصحارى صبره نجل بوزيد
يا ويلكم اليوم نفـدي ثاري وإلا نموت بين الخيول شهيـد

ومما ينسب الى بوزيد الهلالي يخاطب الجازية اثر رجوعه من رحلته الى إفريقية وحده وقد كان سافر معه أبناء أخيها فمات منهما اثنان في الرحلة وسجن الثالث في تونس حسب زعم القصاصين:

يونس قتيـل عنـد البربـــر هاذاك قبره والتـــراب غطـــاه
ويحيى في بير نقـــــــوه يا ليتنـــا ما وردنـــــاه
ومرعـــــي في سور تونس والحي منكـــم بالـــعين يراه

تونس في جوان 1980

ملاحظات حول التاريخ والتصوّر الاسطوري في القصة الهلالية

أنيتا بيكر

هناك مثل شعبي يقول: « اللي يمشي عَمَ بوزيد ما يروحش ». وبالرغم من صعوبات الدهر، ها نحن جميعًا، بعد مجهود طويل، ونحن نتتبع القصص الهلالية، قد رجعنا بالسلامة واجتمعنا بهذه المناسبة السعيدة.

وأتناول الكلام لأقدم لكم ــ بصورة ملخصة جدا ــ ما لاحظته عن العلاقة بين الأسطورة كما سجلتُها في ولايات قابس ومدنين وصفاقس وقفصة، وبين التاريخ حسب ما وَصَلَنا.

ولكن حذار...

لم آت لأنبش أخربة الماضي البعيد، وإن كانت القصة الهلالية قد انبثقت في ظروف تاريخية الا أنّها ليست قصة تاريخية، أعني أنها ليست وثائق لإثبات الحوادث التاريخية. وبطبيعة الحال، ليس من حقي أن أنكر أهمية التاريخ. فنحن نعرف أن هناك وجوها سياسية هامة لها أثرها في العلاقات بين الفاطميين والزيريين وراء الزحفة الهلالية والسُّلَمِيّة من الصعيد المصري في منتصف القرن الحادي عشر.

ولكن السبب القاهر الذي أكده رواة الجنوب في رواياتهم هو ضغط الظمإ والمجاعة، وهما ما دفعا هؤلاء البدو الى الرحيل بلا عودة متجهين دوما نحو المرعى والمياه قاصدين إفريقية.

ويقول الراوي الحاج عبد السلام المهذبي من المزونة :

« واشتدتْ عليهم الزمّة
سبع سنين ماروش المطر
حتى لل ماشي يفنيهم الشرّ
النعيم انقطع
وصاروا ما يأكلوا إلّا في قديد البل »

ويقول الراوي نصر بن عبد الله اللملومي من بحيرة :

« سبع سنين لا دار الهرواق بيننا
ولا غاثنا درّ سحابة ماء ».

ولنذكر الآن على سبيل المثال بعض الجوانب من القصة التي توضح لنا العلاقة بين التاريخ وأسطورة بني هلال.

يتفق التاريخ والأسطورة حول وصف افريقية :

نلتجيء الى الراوي الذي يقول على لسان بوزيد :

« خطمت على منيخة مدهدهة في الصبيحة عزّ المهارى
وخطمت على زرزيس فيه غليظ الورقة
معكوف العصا عليه شارف ذلل عبورها
وجيت إل قابس الخضراء وفيها خليفة الزّناتي
مرقب على ظهر سيف كأنّه بوبشير يطارد في عشاه
وللمعز ريت زغوان وللنعجة صحاوين القروان ».

يتفق التاريخ والأسطورة أيضا في أن الهلاليين بعد امتلاكهم لتونس قد انقسموا قبائل وجماعات متخاصمة متحاربة. وحسب كتاب العبر لابن خلدون قد انقسم الجنوب التونسي لعروش رياح وزغبة وقرّة وأثبج وخلط وغيرها من القبائل الهلالية. وفي رواية الحاج عبد السلام قال بوزيد :

« ذياب قتل خليفة الزناتي

يحق له يأخذ تونس
والسلطان حسن يأخذ القيروان
وأناي نأخذ الأندلس،
تفصلنا ».

تختلف أحيانا الأحداث التاريخية عن الأسطورة : في التاريخ، إن أمير إفريقية المعزّ بن باديس قد استقبل الهلاليين الأوائل بالترحيب وكوّن منهم مستشارين وزوّج أمراء مرداسيين ببناته. وهذا يدل على أنه لم يكن يتوقع منهم الخطر. بينما تذكر الأسطورة أن أمير إفريقية، وتجعله خليفة الزناتي الذي كان تاريخيا وزيرا في تلمسان، كان يخشى قدومهم الى بلاده.

فحسب رواية الحاج عبد السلام : اذ خرج وزراء تونس للصيد فاستقبلتهم حيوانات كثيرة نافرة من أمكنتها، قتلوا منها ما شاءوا. وعندما سمع بذلك خليفة الزناتي بكى وقال :

« ها الهول هذا ما جانا الّا جاباته أهوال أكثر منّا ».

كذلك التّاريخ يذكر معركة حيدران الفاصلة بين أمير إفريقية المعز بن باديس وبين الهلاليين، كما يذكر الصلح الذي وقع بينه وبينهم بعد المعركة. بينما لا وجود للصلح في الأسطورة، ولا تذكر المكان التاريخي للمعركة وإنما تذكر أماكن أخرى يختارها الراوي ليقرب حديثه للسامع فيجعل الأماكن قريبة منه. مثلا يجعل راوي تطاوين المعركة الكبرى بين الهلالية والزناتية قرب تطاوين. وفي هذا الصدد، يجعل محليا مرقب ذياب أو بئر نقوة أو مندبة بني هلال في قصته. فحدا بي ذلك الى أن زرت أكثر من مرقب لذياب وسمعت عن عدة أماكن ملقبة « بمندبة بني هلال» أو « قصر خليفة الزناتي». ومع هذا فلم ألتق بالغول المتملك بماء بئر وقد صارعه الهلاليون مصارعة عنيفة من أجل الحصول على الماء.

فوجود الغول في الأسطورة عنصر خيالي لا وجود له في الواقع — على ما أعتقد — وإنما يرمز الى صراع الهلاليين مع الطبيعة القاسية للورود الى الماء. وهذا جوهر الأسباب الاقتصادية التي دفعتهم للتغريبة.

فالأسطورة كما ذكر ذلك ابن خلدون بعد الزحف بثلاثة قرون قد ابتعدت عن أن

تبقى مصدرًا تاريخيا ثابتًا. تُرى هل تكون هذه الأسطورة أثبت وأدقّ في أيامنا هذه ؟

إنّ مجمل محتويات القصة تجرد تلك الظروف من صبغتها التاريخية. هذا التجريد نقل الى نطاق الثقافة واتخذ اصطلاحات الأسطورة عبارةً وتعبيرًا. والأسطورة تمثل ماهو راسخ عمقا في قلب شعب من الشعوب : فمن ناحية تربط الأسطورة شعبًا ببقية الشعوب بما تحتويه من مفاهيم اسطورية مشتركة وعالمية. وهذا في حدّ ذاته ما يبرز مجيئي من وراء البحار واندماجي في مجتمع غير مجتمعي، ومن ناحية أخرى تميز الاسطورة الشعب عن بقية الشعوب بما يملكه من خاصيات ثقافية واجتماعية وتاريخية وعقائدية. وهذا ما يبرز بدوره مكانة الراوي الفعالة في إحياء التراث الثقافي.

فلأرسم لكم أحد الرواة من بين الذين نقلت عنهم القصة الهلالية اذ الراوي لهذا البحث هو نقطة الانطلاق :

هو رجل يتأرجح بين الخمسين سنة والقرن، متواضع الهندام، يرتدي «البرنوس» ويلتف بلحفة تحيط بوجه أسمر، لفحته شمس الجنوب، تنيره عينان براقتان تعبران عن عمق تجربة مع الحياة والطبيعة. هو تاجر بالمهنة أو عامل أو راع أو فلاح. ولد ويعيش بين أحضان الطبيعة. قد تعلم عند المؤدب ما تيسر من القرآن الكريم، وارتحل متنقلا بين مختلف الجهات التونسية (وأن من الرواة من سافر الى ليبيا أو الجزائر أو فرنسا طلبًا للعمل، ومنهم من تحول الى بلدان الشرق العربي خلال التحاقه بالجيش الفرنسي أيام الحرب العالمية الثانية)، ومع ذلك فإنّه لا ينفك متشبثًا بوسطه الجنوبي، متعلقًا به محافظًا على أصالته.

أما فيما يتعلق بروايته فربما اقتبس عناصرها من كتاب عتيق، صفحاته صفراء «مسوّسة» طُبع في القاهرة أو في بيروت، وربما حفظها عن أحد آبائه الذين قد اختفوا عن الأنظار منذ جيل أو جيلين. ومهما يكن من أمر، فالراوي مغرم بالقصة التي يقصها، متفاعل مع مواقف الأبطال حتى لتصبح القصة رواية مبتكرة، مخلوقة من جديد، منسوجة من خيال الراوي وخيوط أبعاده الفكرية، نابعة من واقع بيئته. فإذا بالواقع والخيال خيطان منسوجان متماشيان في تناسب. فالراوي

يعتبر أسطورة الهلاليين وأحداثها العامة أمرًا واقعيًا لا شك فيه. كما يؤكد الراوي نفطي بورخيص من مدنين أنه نقلها من أفواه الهلاليين أنفسهم ! وهو يعتبر تاريخ الهلاليين سلسلة متصلة الى أيامنا هذه. الا أن البعض من الرواة — وهم قلائل — الذين تثقفوا اجتماعيا يعتقدون أن بعض الأحداث الهلالية ليست سوى « خرافات عزايز ».

ولربّما نلمس في هذا ما ربط الأسطورة بالتاريخ أهم ربطة وأقواها.

أنيتا بيكر